الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

الخرافة حليفة الجهل ، وأليفة الأوهام ، عنوان ناقصى الثقافة ، ورمز ذوى العقول الضعيفة ؛ كالحشرات الدنيئة ، لايحلو لها العيش إلا فى الأماكن المظلمة ، أو كالحشائش الضارة ، لايعظم نموها إلا فى التربة الفاسدة ؛ تقف فى طريق الحق ، وتقاوم كل تفكير . وكأنها ذات قوة سحرية تنشى الأبصار ، وتصم الآذان ، وتقضى على كل مافى المرء من عقل وروية ؛ أو كأنها مظهر لوحى خفى يستولى على النفوس والأفئدة . وكيف لا والسحر خرافة لبست ثوب الفن ؟ والخرافات فى أغلبها اكتست بكساء الدين ، لذلك لبى نداءها ممتنقوها ، ونزل عند ارادتها من آمن بها ، ولو أدى ذلك إلى ارتكاب جرائم شنيعة ، وازهاق أرواح بريئة ، وتبديد ثروات طائلة . وكم باعدت الخرافة بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجه ، والأخ وأخيه ، والابن وأبيه . وقد لايقف عدوانها عند الأحياء ، بل يتعداهم إلى الأموات ، فخربت من جرائها قبور ، وانتهكت حرمات . وبذا كانت من أشد أخطار الانسانية واكبر أعداء الحضارة والمدنية . وما أصدق مونتيسكيه (Montesquieu) حين يقول : « أعد نفسى أسعد الأحياء إذا استطعت أن أبرىء الناس من خرافاتهم [1] »

بيد أن الخرافة ليست شراً كلها ؛ فى حجرها درج العلم ، وتحت كنفها نما كثير من النظم الاجتماعية . فالعلوم فى نشأتها كانت سلسلة خرافات متصلة ، وطائفة غير ملتئمة من الظنون والأوهام ؛ وما الكيمياء الحقيقية إلا وليدة الكيمياء الصناعية [2] وما الفلك فى قواعده وأصوله إلا ربيب العرافة والتنجيم ، وما الطب إلا نتيجة وصفات بلدية هُذِّبت ، وتجارب عادية سلك بها سبيل البحث والتمحيص [3] ؛ وما طبيعة اليوم المملوءة بالأصول والقوانين إلا الثمرة الناضجة للآراء الخاطئة المشحونة بالأوهام والخزعبلات ، والتى أدلى بها فلاسفة الأغريق الأول أمثال طاليس وأنكسمندر [1] . والحكومة فى سلطانها ، والأسرة فى نظامها ، والملكية فى احترامها مدينة للخرافة إلى حد كبير : فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر ، لأن الخرافة شاءت قديماً أن تضعه فى صف الآلهة والأرباب ؛ والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ماكانت لتغضب الله والناس فقط ، بل ربما استتبعت هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار ؛ والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والشياطين والقوى الخفية المتصرفة فى هذا العالم [2] ؛ وإذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع إلى أصل خرافى : فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر فى غالب الظن مبدأ من مبادىء السحر والشعوذة ؛ والعطلة الأسبوعية التى ننعم بها الآن لم تكن إلا لأن الانسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة [3] وفوق هذا وذاك فالخرافة تغذى ناحية نفسية لايصح تجاهلها ، ذلك لأن الانسان لايلبى داعية العقل والمنطق فقط ، بل هو خاضع لخياله وعواطفه . وللخيالة ميادين تسبح فيها ، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها ؛ وما الخرافة إلا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع ، وحياة لاتعتمد إلا على الأسس الطبيعية والبراهين العقلية — كما ينادى بها أصحاب الرواق — جافة قطعا ولا وجود لها إلا فى أدمغة زينون وكريزيب

ليس هناك شك فى أن الانسان مستعد بطبعه لقبول الخرافة ؛ فهو ميال دائماً لأن يعرف أكثر مما يرشده اليه بصره وعقله ، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية صوراً أخرى تحقق رغبة من رغباته ، أوتسد ناحية من نواحى نقصه [4] . هذا إلى أنه فى ضعفه يحاول أن يعتز بقوى خفية — وإن تكن خيالية — فى التغلب على مشاق الحياة . ومن هنا كان التعلق بالخرافات عالمياً ، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب . فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الانسانية بأسرها ، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة ، وتشبث بها الناس بعد أن خطوا خطوات

(1) cité par S. Reinach dans la Tâche de psyché, XI.
(2) Pattison, The Story of Alchemy and the Beginings of Chemistry, London, 1902.
(3) Hesse et Gleyze, Notions de Sociologie, 252 et suiv.

(1) Rey, La jeunesse de la sciensa grecque, 19 et suiv.
(2) Frazer, La Tache de psyché, Paris, 1914.
(3) Encyc. Britannica, XIVe ed., T. 21, p. 578.
(4) Encyc. of religion and ethics, vol. 12, p. 122.

فسيحة فى سبيل العلم والمدنية ، ولا يزالون خاضعين لشىء من سلطانها إلى اليوم . وحديث القصور الزبرجدية والآرائك المسجدية التى بناها المردة والشياطين فى أرض نائية وجزر منقطعة ، بهر الانسان الهمجى وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين [1] . والتفاؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الأغريق والرومان والعرب ، وحتى الساعة يقول عامتنا : «خذوا فالكم من قبالكم» ، وإذا سمعوا نعيق غراب رددوا الجملة المشهورة : « اللهم اجعله خيراً » . وبديهى أن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر تبعاً لدرجة الثقافة ، ونمو التربية الدينية ، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية ، ولظروف اجتماعية أخرى متعددة . ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم فى هذا المضمار ، فيزعم مثلاً أن المشاهد السينمائية فى انجلترا وفرنسا تؤذن بأن الشعب الانجليزى إلى الغريب أميل ، وفى الخرافة أرغب . وهذه الموازنات وإن تكن مثار شك كبير ، ربما وصلت إلى نتائج شيقة إن عنى بضبطها وصحتها . وإذا كنا نتحدث عن الأفراد والشعوب واستعدادهم لقبول الخرافة ، فيجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة ، وهى أنه لا يوجد شخص يسلم بالخرافة التى يعتنقها فى حين أنه متيقظ دائماً إلى خرافات الآخرين . وقد يصل بنا الأمر إلى أن نقيس الشىء الواحد بمقياسين مختلفين ، وننظر اليه بمنظارين متباينين ، فان كان مما عرفناه وألفناه أضحى دينا وعقيدة ؛ وإن اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبينا ما فيه من تضليل وتخريف : وكأن ما هو دين فى رأيك خرافة فى رأى غيرك وبالعكس [2] ؛ وعل ذلك راجع إلى أن الخرافة تسلب معتنقها قوة النقد والحكم الصحيح ؛ هذا إلى أنها نسبية وصعبة التحديد : فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم ؛ وما هو صواب شرق جبال البرانس يعد خطأ غربيها ؛ ومقياس الخرافة — كمقياس الحق والباطل — يتغير بتغير الظروف والأزمنه

يعز علينا حقيقة أن نُعرِّف الخرافة تعريفاً شاملاً ، وأن نضع لها حداً ثابتاً . فلا يمكننا أن نقول إنها كل ما خالف العلم الصحيح ، فان هذا العلم نفسه لما يحدد تماماً ؛ على أنه قد يقصد

(1) Larousse, voir superstition.

(2) Encyc. of religion, vol. 12, p. 120.

أموراً يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة . فكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضير الأرواح ، ويجتهد فى أن يفسره تفسيراً علمياً . ولا نستطيع أن نقول إن الخرافة كل ما ناقض الدين ، فان هناك أشياء اكتست بكساء دينى كامل فى حين أنها خرافة صريحة . وفى شىء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جمعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة . وعل فى سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة فى حقيقتها ومدلولها . من ذلك أن بعض الأوربيين يرى أن كب الملح نذير سوء . وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة مؤذن بأن واحداً منهم سيموت فى العام نفسه ، وأن تقديم السكين يقطع المودَّة ، وأن وضع المكنسة فى الماء مجلبة للمطر . وخرافاتنا المصرية التى هى ميدان فسيح للدراسة غير متناهية العدد ؛ ومن أشهرها حديث « الشامة » ورعراع أيوب وأكل البصل أيام شم النسيم ، وصناعة التبخير أو « الزار » والرقى والتعاويذ . وعبثاً نحاول إن شئنا أن نأتى هنا على مختلف الخرافات العالمية أو المصرية . وفى مقدورنا أن نلاحظ بوجه عام أن الخرافات تكاد تتمركز حول نقطتين هامتين : المعتقدات والعبادات الدينية ؛ وهذا ما سماه الألمان Aberglanbe

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد ؛ فبينوا مضارها السياسية والدينية والاجتماعية ، وعملوا على إحصاء الخرافات المتعددة وإثباتها فى قواميس خاصة (نذكر من بينها : le Dictionnaire infernal) ، وتقسيمها إلى فصول وأنواع مختلفة [1] . ومن أقدم من كتب فى هذا الباب ؛ لكريس Lucrèce + 51 av. J.-C. وفلوطرخس Plutarque + 125 والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة فى شىء من التوسعة ونقدها نقداً مراً ؛ وربما كان متأثراً فى ذلك بما ساد عصره من خرافات لا حصر لها [2] إلا أن الفضل فى دراسة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع إلى علماء الاجتماع المحدثين الذين تولوها بالشرح والتحليل . فبحثوا عن أصلها ، وسبيل انتشارها ، وأثرها فى المجتمع ، وطريق علاجها . وكان لهم فى ذلك مؤلفات قيمة جذابة نخص بالذكر

(1) La grande Encyc., T. 30, p. 717.

(2) Masson, Lucretius, Epicurian and Poetics, London, 1907. — Plutarque, de Superstitione, bonne tr. ang. par P. Holland, 1603.

منها كتاب فريزر الذى سنعرض له بالتفصيل فى فرصة مقبلة إن شاء الله [1]

إذا تصفحنا التاريخ وجدنا الانسانية نشأت حاملة معها خرافاتها . فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعها لدين ثابت وأصل مقرر ؛ ولا زلنا نرى أثر هذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة . وإذا جاوزنا هذه الأمم الى الشعوب التى أخذت من الحضارة بنصيب ، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات . وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها . والأغريق الذين بهروا العالم بعلمهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتناقاً للخرافة من غيرهم ، وتاريخهم الديني مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير مرة . وربما كان اللاأدريون les Sceptiques من أول من رفع الصوت جهرة فى وجه الخرافة والانقياد الأعمى ، ودعا الى تحرير الفكر الانسانى [2] . كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها . غير أن رجال القرون الوسطى عادوا — تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء — فارتطموا فى بؤرة الخرافة ، وتفننوا فيها أيما تفنن . ثم جاء عصر النهضة والاصلاح الديني فسلكا بالعقل الانسانى مسلكا جديداً وأثارا على الخرافة حرباً شعواء . ولا تزال العلوم الحديثة تنكل بها يوماً بعد يوم ، وتطاردها فى كل مكان

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة فى سبيل الانقراض ؟ وهل تأمل الانسانية أن تتخلص منها بتاتاً ؟ ليس بيسير أن نجيب إجابة شافية على السؤال الأول ، فان الاحصاءات فى هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة ؛ والخرافة ، وقد تمكنت من نفوسنا وأضحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا ، صعبة التميز وكثيراً ما بدت بمظهر الشيء المعقول والمسلم به . ولكن مما لاشك فيه أن الفكر الانسانى تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون . وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هذه الترهات والأباطيل ، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة بكشف دخيلها ويبين ما اشتملت عليه من خطر وأضرار . ومع هذا يخيل الينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماماً ، وستبقى الخرافة مابقى الانسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية .

(1) Frazer, L'avocat du diable ou la Tache de psyché, tr. fr., Paris, 1914

(2) Bevan, Stoics and Sceptics, London, 1913.

وها هى ذى خرافة تفنى لتحل محلها خرافة أخرى ، فلئن بادت الخرافات الوحشية لقد أعقبتها خرافات حضرية . على أنه ليس ثمت ضير — على مايظهر — فى أن تنطلق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات ، فان فشت الخرافة وسدت طريق التفكير والحكم الصحيح فهنا الداء القاتل والخطر المحدق

وكأنى بهذه الحال تنطبق تماماً على ما يعانيه بلدنا اليوم . فنحن فريسة للخرافة فى طعامنا وشرابنا ، فى ملبسنا ومسكننا ، فى حركاتنا وسكناتنا ، فى مختلف عاداتنا وتقاليدنا ، بل وفى آرائنا ومعتقداتنا ، وكثيراً ما وقفت الخرافة عقبة كأداء فى طريق تقدمنا العقلى والجسمى ، والخلقى والاجتماعى . وفى رأينا أن خرافاتنا المتفشية ترجع الى أسباب كثيرة أهمها :

(١) طريقة الوعظ والارشاد والتربية الدينية الفاسدة ، (٢) حياة القهر والاستبداد ، (٣) الفقر (٤) والجهل . لقد سلكت طائفة من وعاظنا مسلكاً خاطئاً للغاية ، وأرسلت لنفسها العنان — طمعاً فى الترغيب أو الترهيب — فى سرد خرافات يأباها العقل والدين ، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر وعمدتها فى ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير المملوءة بالاسرائيليات والآثار الضعيفة أو المكذوبة . وكأن علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله ، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة فهم يثبتون دعائمها ويبالغون فى نشرها . وليست حياة القهر والاستبداد بأقل أثراً فى نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسد ، فالمغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه . كذلك تمنى الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلابة ، وتسبغ عليهم من الخيال ما تعجزت الحقيقة عن الوفاء به . ويحرم الجهل أخيراً عامة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضياء ، وقلوبهم للرجاء ، لذلك كانت الخرافة والجهل نوعين متلازمين ، وأخوين لاينفصلان ، وقديماً قالوا : الخرافة عمياء تخشى ما تحب ، وتحب ما تخشى . وإذا كنا قد شخصنا الداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية وحذار أن نحارب الخرافة وجهاً لوجه ونقتصر على تسفيه أحلام معتنقيها ، فانه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن إلحاده من أن نحول المخرف عن خرافته .

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة